العربي الجديد

هوامش

تعتبر مدينة مليانة من أشهر المدن في الجزائر وأقدمها، وتزخر بتاريخها العريق الضارب في الأعماق. واستعمل الاستعمار الفرنسي مناجم الحديد في مليانة لبناء برج إيفل

مليانة مناظر رائعة وثروات مناجم حديد (العربي الجديد)

مليانة

مدينة الأمير عبد القادر وحديد برج إيفل

الجزائر ـ **كمال بوحدة**

على ارتفاع نحو 800 متر عن مستوى سطح البحر، وفي أحضان جبال زكار بمحافظة عين الدفلى التي تبعد 120 كيلومتراً من غربي العاصمة الجزائرية تقع مدينة مليانة التي تختلف الروايات حول تأسيسها، إذ يقول البعض إنه حصل من قبل الفينيقيين. أما آخرون فيرجحون رواية تأسيس الإمبراطور الروماني أوكتافيوس لها في القرن 27 قبل الميلاد، وأطلق عليها حينها اسم «زوكابار» البربري الليبي. وبعدما تعاقبت عدة حضارات على المنطقة، مثل المرابطين والزيانيين، استولى عليها الفاتح بولوغين بن زيري الصنهاجي عام 972 ميلادياً، وجعلها عاصمة للصنهاجيين لسنوات طويلة، وأعاد بناءها ما جعلها تستعيد بريقها التجاري والاقتصادي.

أعجب العثمانيون بمليانة وجعلوها مقراً لمكتب الباي، وألحقت بدار السلطان في العاصمة 1715. وعاشت المدينة خلال هذه الفترة أزهى أيامها الاقتصادية والتجارية والثقافية فتحوّلت إلى مقصد للوفود من كل حدب وصوب، ثم اختارها مؤسس الدولة الجزائرية الأمير عبد القادر إحدى قلاعه الحصينة المعززة بمنشآت عسكرية، ومركزاً لصناعة الذخيرة والشمع وبعض المواد الأساسية التي كان يرفد بها الأقاليم التابعة لدولته الفتية. وبمجرد الوقوف في ساحة المدينة ساحة الأمير خالد تحت أشجار البلاطان العملاقة، يمكن مشاهدة دار السلطان أو دار الأمير ودار الخلافة، كما سُميت لاحقاً إثر تحويلها إلى متحف تحكي طوابقه وزواياه للزوار تاريخ المنطقة الضارب في الأعماق، وروايات القائد الذي قرر إنشاء دولة مستقلة ومقاومة الاستعمار الفرنسي بجيش ضم 10 آلاف عسكري أدهش في ذلك الوقت أقوى جنرالات فرنسا. يقول الباحث والمدير السابق لمتحف مليانة، بن يوسف عباس، لـ«العربي الجديد»: «كانت المدينة المعروفة بثرواتها المنجمية، خاصة مادة الحديد، محل أطماع المستعمر الفرنسي، بعدما استخرج الأمير عبد القادر المواد الأولية لصناعة الأسلحة من المنجم، إثر اكتشاف خبير عسكري فرّ من الجيش الفرنسي والتحق بجيشه النوعية الجيدة للحديد في مناجم المدينة». وطوّر الفرنسيون المناجم، وجرى تشكيل هيئة خاصة بمنجم واد الروينة ومنجم زكار اللذين نقلت منهما كميات كبيرة من الحديد والحجارة الى فرنسا بعد تجميعها في ميناء بني حواء وحجرة النص غربي محافظة تيبازة، ثم استعملت المواد في بناء برج إيفل في باريس وتهيئة الشوارع الرئيسية المحيطة به.

وقدم الفرنسيون هدية لمدينة مليانة تمثلت في ساعة كبيرة مصنوعة من حديد برج إيفل نفسه، وجرى تنصيبها في منطقة العبادية، ثم اختفت إثر الزلزال الذي ضرب منطقة الأصنام في ثمانينيات القرن العشرين.

ومن الشواهد التي تحكي تاريخ المنطقة، السور الذي يعشقه الزوار وأبناء المدينة الذين يستريحون فيه مساء كل يوم، وينظرون منه إلى مدن وسهول هي كورنيش طبيعي من الرمال والجبال والنباتات والأشجار النادرة. وعند كثيرين ليس هناك أجمل من المناظر الرائعة التي يمكن مشاهدتها في فصل الربيع بمليانة، والتمتع بنسمات الهواء المنعش الذي يضرب المنطقة كل مساء.

يقول رئيس جمعية أصدقاء مليانة للفن والثقافة، لطفي خواتمي، لـ«العربي الجديد»: «السور جزء من بقايا تحصينات المدينة القديمة الرومانية التي أعيد بناؤها على هيئة سور كبير يحميها في الفترة العثمانية، ويطل على جبال وقرى صغيرة كانت تحت عيون حراس المدينة. وقد رُدم جزء من السور مع مسجد البطحاء وجرى تحويله إلى ساحة ومتنزه للعائلات وملتقى لأصدقاء يتخذون من المقاهي البسيطة التي تنتشر على طول مسافته أماكن للراحة والاستمتاع. ورغم القيمة التاريخية للسور، عرف الإهمال، بحسب ما يقول خواتمي، بعدما سقط جزء منه بسبب الرياح والأمطار عام 2012، وتحوّل جزء آخر إلى مكان لتفريغ النفايات، لذا يطالب بتصنيف السور ضمن الموروث التاريخي والثقافي، وإعادة تهيئته .

أما مسجد البطحاء فيعود تاريخ إنشائه إلى الحقبة العثمانية حين اتخذ مقراً لإقامة الخليفة. وهو واحد من 25 مسجداً كانت موجودة في المدينة حينها، والتي بقي منها خمسة. وقد هدم المستعمر الفرنسي المساجد عام 1844 وجعل أرضيتها ساحة سميت «ساحة كارنو» لم يبقَ منها أيضاً إلا منارة جرى تحويلها إلى ساعة تشحن كل 72 ساعة. ويوجد تحت المنارة نفق يؤدي إلى خارج الأسوار وجبل زكار الذي كان يستعمله المقاومون أثناء الحروب.

باختصار

اختار مؤسس الدولة الجزائرية الأمير عبد القادر مليانة إحدى قلاعه الحصينة المعززة بمنشآت عسكرية، ومركزاً لصناعة الذخيرة

■■■

استعمل الحديد المستخرج من مناجم مليانة في بناء برج إيفل في باريس، وتهيئة الشوارع الرئيسية المحيطة به

■■■

عند كثيرين ليس هناك أجمل من المناظر الرائعة التي يمكن مشاهدتها في فصل الربيع بمليانة

وأخيراً

العُلماء قصّاصو الحياة

نجوى بركات

تغوينا القصص التي يُؤلّفها علماء نتيجة اكتشافاتهم العلمية التي تقتضي التمتّع بمخيّلة خصبة ومرنة يمكنها تظهير «نيغاتيف» الفِكَر، وتبسيط الرؤى الأكثر تعقيداً، وإيجاد حلقات وصل بين أزمنة منسيَّة سحيقة لا تني تمضي مع تقدّم الأبحاث العلمية، فلا تستقرّ على حال ثابتة فتعاد كتابة نهاياتها إلى ما لا نهاية.

تعرفون الجَدّة لوسي بالطبع، وهو اسم الرفات الذي تمّ اكتشافه في إثيوبيا منذ أكثر من 40 عاماً، بل إنّه ما تبقّى من هيكل عظمي (40%) اعتُبر الجَدَّ الأقدم المعروف للإنسان القديم، وقد تبيّن أنّه لأنثى شابّة بالغة أطلق عليها اسم لوسي. الاسم هذا كان القطبة الأولى في قماشة قصّتها، فهي عاشت في أفريقيا (الحبشة) من حيث يتحدّر البشر الأوائل، وكانت تسير على اثنتَين لأنّ قدميها شبيهتان بساقي طفل، وهي كانت تتسلّق الأشجارَ وتعيش فيها وتنتقل من مكان إلى مكان. حتّى إنّنا تعرّفنا إلى سبب مماتها، إذ قدّر العلماء أنّها غرقت، إلى أن جاء من نقض هذا الافتراض، وقال إنّها سقطت من على شجرة بارتفاع 12 متراً، وهي تحاول بلوغ ثمرة. قال الباحث جون كابيلمان إنّه يراها بشكل مختلف «شخصاً تُوفّي، وليس رمّةً من عظام». أيضاً، صنع لها الكومبيوترٍ وجهاً، وصوتاً، وطريقة حركة، فباتت شخصية بكلّ ما تملك الكلمة من معنى. لوسي صغيرة القامة (107 سنتيمتراً) وزنها لا يعدو ثلاثين كيلوغراماً، تتبع كجنسها من الأسترالوبيثكس (شبيه الإنسان الأسترالي) نظاماً غذائياً نباتياً، بالإضافة إلى النمل الأبيض وبيض التمساح. أمّا الاكتشاف العظيم الذي مثّله هيكلها، فهو وضعية حوضها وركبتيها وكاحليها، التي تشير إلى أنّها كانت قادرةً على المشي، وهي مَلَكة اختصّ بها، حتّى ذلك الحين، جنس هومو (الإنسان) في مختلف تنويعاته، وهو ما اعتبر اكتشافاً للحلقة المفقودة بين القردة والإنسان.

لقد اعتُبرت لوسي مدّةً طويلةً جَدّة البشرية (عمرها ثلاثة ملايين ومائتا ألف عام) وأقدم إنسان منتصب اكتُشف، مع أنّه جرى العثور على 13 هيكلاً آخرَ من جنسها، فكان أن أقامت في مخيّلتنا الجماعية بوصفها أولى حلقات سلسلة الكائنات التي نتقاسم معها الجينات. إلّا أنّ اكتشافاتٍ لاحقةً في آخر سنوات أنزلتها من مرتبتها تلك، وجعلتها مُجرَّد صبيّة من أبناء عمومتنا البعاد، وذلك إثر العثور على أنواع أخرى من أشباه البشر عاشت على مسافة 35 كيلومتراً فقط من الموقع حيث وجدت لوسي، وهو ما قوَّض النظرية القائلة بأنّ أسترالوبيثكس أفارينسيس هو سلفنا المباشر.

في مستوىً آخرَ، نشرت المجلة العلمية الفرنسية Sciences et Avenir الشهر الفائت مقالاً عن اكتشافٍ مذهلٍ لمقاطعَ من مسرحيَّتَين ضائعتَين («إينو» و «بوليدوس») للمؤلف المسرحي الإغريقي الأشهر في العالم القديم (مع سوفوكليس وإسخيلوسٍ) يوريبيدس، الذي نعرف له اليوم 19 مسرحيةً، في حين ألّف نحو 95 عملاً عُلم بوجودها بفضل جردةٍ تُعدّد عناوين المسرحيات، وتُورد مُوجَزاً عن موضوعاتها. المقاطع مكتوبة باللغة الإغريقية على ورقة بُردى مربّعة (27 سنتيمتراً مربّعاً) أكبر حجماً من الأوراق المُستخدمة آنذاك، ومحفوظة بشكل جيد. أمّا المذهل حقّاً فهو المكان حيث وجدت؛ مدفن متواضع شمال شرق الفيّوم (يبعد 85 كلم من القاهرة)، عائد إلى القرن الثالث، لسيدة عمرها بين 40 و45 عاماً، وبقربها مومياء طفل صغير. أما دارسو المخطوطة والمتحقّقون من أصالتها، فقد صرّحوا: «لا نعرف إن كانت قد وضعت هنا لهدف ما، أو أنّها أضيفت مع أغراض أخرى لملء القبر... من الممكن أن تكون الريح قد حملت أوراق البُردى التي كانت تُجمع بهدف التحنيط، فوجدت في المدفن صدفة، مع العلم أنّ بعضهم يُودّون إيجاد علاقة أوثق بين المخطوطة والموتى».

نعم، ونحن من هؤلاء! بانتظار أن ينجلي سبب وجود مقاطع مسرحية يونانية ليوريبيدس في قبر سيّدة مصرية.

> اعتُبرت لوسي مدّةً طويلةً جَدّة البشرية، وأقامت في مخيّلتنا الجماعية بوصفها أولى حلقات سلسلة الكائنات التي نتقاسم معها الجينات